والذي لا نشك فيه أن الحديث عن (وحشية اللفظ) كان ذا دلالة محدَّدة عند السَّلَف من خلال ما تمرَّسوا به من تتبُّع للصِّيغ ، والاستعانة في هذا التتبع بثقافة لُغوية واسعة ، يمكن أن تفيد في مجال رصد الخواص التعبيرية لنص معيَّن ، واستخلاص الحقائق الجمالية التي تستكن في صياغته ، باعتبارها رصداً موضوعيا يعتمد على الوضع الذي يتخذه المنشئ تجاه لغته ، دون إغفال لعامل التطور ، أو طبيعة البيئة الاجتماعية والثقافية للمبدع والمتلقي على سواء .

وعلى الرغم من الدقَّة والتحديد في مفهوم (الوحشية) نجد أن هناك محاولة لربطه بأمور انطباعية في دائرة (الرِّقَّة والجزالة) ، دون وضع التوصيف الجامع لمثل هذين المصطلحين ، وإنما حاول كل مؤلِّف أن يحدِّد الفارق من خلال ربط المصطلح بطبيعة الاستعمال بأبعاده المكانية أو الزمانية ، فالقاضي الجُرْجاني يرى أن المتقدِّمين خُصّوا بمتانة الكلام ، وجزالة المنطق ، وفخامة الشعر[1] ، دون أن يقدِّم تحديداً واضحاً لمفهوم هذه المصطلحات التي رددَّها في حديثه عن الشعر . لكنه يعود ويتقدَّم خُطوة أخرى رابطًا بين طبيعة الصياغة وطبيعة الشخصية ، بحيث أصبحت اللفظة — عنده — مشتقَّة من شخصية صاحبها ، فالناس في ذلك تتباين أحوالهم بين الرِّقَّة والصَّلابة والسُّهولة والتَّوعُّر « بحسب اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافي

(١) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي . القاهرة ، عيسى الحلبي ، ١٩٦٦ . ص ١٦ .